الشعر الجاهلى

بين الذاتية والجماعية

د. أحمد عبد المنعم أحمد العسيلى
مدرس الأدب والنقد
فى كلية اللغة العربية بأسيوط

لحكمة أرادها الله لهذه الأمة أن تكون براعتها الغالبة فى الكلمة الأدبية والشعر بغير جدال هو الرفيق الأعلى للوجدان الانسانى، وهو أصعب وأرقى فنون القول وعلى الأخص فى العصر الجاهلى الذى صور فيه الشاعر ذاته ووجدانه وعبر به عن مشاعره وعواطفه فوق ما كان له من أهمية ودور عظيم فى نقل صور هذا المجتمع الذى صور الشاعر الجاهلى البيئة العربية من خلاله وظهرت فيه ملامحها بوضوح وجلاء وسجلوا فيه ما خطر ببالهم واعتلج فى نفوسهم وجال بأفئدتهم، وبالجملة فقد صوروا فيه حياتهم ، وكل ما يحيط بهم ، ويقع عليه بصرهم كل ذلك صبه الشاعر الجاهلى فى القالب الشعرى المعبر عن المشاعر الانسانية المحببة اليهم ولهذا شغل حياتهم الى درجة كبيرة .

ومن يمعن النظر فى الشعر الجاهلى يجده بحق هو الفن الرفيع المحبب اليهم من ناحية ، والذى شغل حياتهم الى درجة كبيرة من ناحية أخرى وهناك الكثير من الروايات ، والنصوص — فى القديم والحديث — التى تعطينا أدلة صريحة على أن الشعر الجاهلى احتل تلك المكانة العظيمة لكونه سجلا تاريخيا لتلك الحقبة من الزمن ، والتى كان الشعر فيها ديوان العرب هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد سجل فيه الشاعر حياته وبيئته ، ووجدانه ، وذاته ، والقيم الأخلاقية . والمثل العليا التى حرص عليها الشاعر الجاهلى . وهذا ما جعل كثيرا من

النقاد والأدباء يشيدون به،ويعلون من قدره عندما يستشهدون بالعبارات المشهورة التي تقول « الشعر ديوان العرب به حفظت الأنساب وعرفت المآثر »(١) ٠

ويقول ابن سلام : « ٠٠٠٠ كان الشعر فى الجاهلية عند العـرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون واليه يصيرون »(٢) ٠

ويقول صاحب الصناعتين : « لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها الا من جملة أشعارها فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمها ومستنبط آدابهـا ومستودع علومها »(٣) ٠ ويروى ابن رشيق عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كتب الى أبى موسى الأشعرى : « مر من قبلك يتعلم الشعر فانه يدل على معانى الأخلاق ، وصواب الرأى ومعرفة الأنساب ، وقال معاوية رحمه الله ، يجب على الرجل تأديب ولده والشعر أعلى مراتب الأدب ، وقال : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر أدبكم ، وكان ابن عباس يقول : « اذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه ، فاطلبوه فى أشعار العرب ، فان الشعر ديوان العرب، وكان اذا سئل عن شىء من القرآن أنشد به شعرا »(٤) ٠

وهناك كثير من الأدباء ، والنقاد القدماء الذين لا نشك فى رجحان تفكيرهم وأصالة آرائهم وصحة أحكامهم فى الحكم والاعتراف على ما كان يتمتع به الشعراء من تقدير كبـير فى المجتمع العـربى فى العصر

---

(١) المزهر جـ ٢ ص ٤٧٠ للسيوطى ٠

(٢) طبقات فحول الشعراء ص ٢٢ لابن سلام ت محمود شاكر ط دار المعارف ٠

(٣) الصناعتين ص ١٤٤ ٠

(٤) انظـر : العمـدة جـ ١ ص ٢٨ ـ ٣٠ لابن رشـيق ت محمد محيى الدين ط٤ لبنان سنة ١٩٧٢م ٠

الجـاهلى ، لأنهم كانوا يحفظون للعرب أنسابهم ، ويسجلون حياتهم، وظروفهم فى سجل تاريخهم المعروف بالشعر لأن « الشعر الجـاهلى وثيقة تاريخية يتعرف منها على ظواهر الحياة المختلفة قبل الاسـلام خاصة عندما تعوز الباحث المصادر المروية أو المكتوبة من الأخبار ولايجد الا الشـعر موئلا يلجـأ اليه كما فعل ابن قتيبـة فى كتابه « الميسر والقـداح »(٥) •

فمن خلال ما ذكر من آراء حول الشعر الجاهلى نجد أنه ليس من شك فى أن الشعر الجاهلى صورة حية للبيئة العربية أعربت عن الحياة الجاهلية اعرابا أماط اللثام عن خصائصها وكشف النقاب عن معالمها ، وكان يعد ديوانهم الذى ينتظم أخبارهم سجلا حافلا بأيامهم،ووقائعهم ومفاخرهم • فالشعراء الجاهليون هم ضمير الأمة الجاهلية يجسـدون أحلامها ، ويعبرون عن فضائلها ، ويصوغون حكمها ، ويعبـرون عن أشواقها الفكرية ، والروحية • كذلك والشعراء الجـاهليون هم الذين جسدوا التجربة الشعرية ، ونقلوها الينـا من قرار نفوسـهم ، ومن أحاسيسهم الذاتية الى عالم الحس من خلال تصويرهم ، واستخدامهم لأدواتهم الفنية وهذا مرجع التأثير فى النفس الانسانية ، يقول صاحب الصـناعتين :

« لا شىء أسبق الى الأسماع وأوقع فى القلوب وأبقى على الليالى والأيام من مثل سائر وشـعر نادر »(٦) • فالشعر « تأثير وقعـه فى النفس من وجهتين من حيث هو كلام موزون ومن حيث هو حـالة من حالات النفس »(٧) •

---

(٥) الأدب العربى فى الجاهلية ص ١٠ أد• عبد السلام عبد الحفيظ.
(٦) الصناعتين ص ١٤٣ لأبى هلال العسكرى •
(٧) المختارات ص ١٩٦ للمنفلوطى •

فالشاعر الجاهلى استطاع أن يعبر فى شعره عن حالات نفسه وهذه هى التجربة الشعرية التى أكسبت الشعر الجاهلى عنصر التأثير والاقناع لأن « الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت فى القلب واذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان »(٨) وكما قال الشاعر(٩) :

ان الكلام لفى الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا
لا يعجبنك من خطيب قوله حتى يكون مع اللسان أصيلا

وهذا يعنى أن الشاعر الحقيقى هو الذى يعبر عن ذاته ، ومشاعره وهذا هو محل الاعجاب ، والجودة فى الشعر ، ولا يختلف اثنان على أن الأدب عامة والشعر خاصة فن « والفن هو أثر من آثار النظرة الوجدانية الخالصة التى تجعله يقدم بها طريقة تقبله لهذه الحقيقة فهو قد يرى ماء البحر لجينا مذابا اذا كان قد لابس وجوده على الشاطىء احساس بالغبطة والنشوة ، فى حين أن العلم لا يمكن أن يرى فيه غير حقيقته التى تتكون منها عناصره « أكسوجين وأيدروجين » ... أما الأدباء فكل منهم يقف أمام البحر ثم يعبر عنه ويصفه بصورة مختلفة .... والبحر لا يتغير عند العلماء مهما اختلفوا ، واختلفت لحظات وقوفهم أمامه ، وكذلك الليل لا يطول « علميا » الا بحسب مدار الشمس كما تقول النظريات الجغرافية المعروفة »(١٠) بينما الحكم عليه من الناحية الفنية يختلف من شاعر الى آخر ، اذ كل واحد من الشعراء له وقفة خاصة ، وحكم خاص ووصف خاص وشىء طبيعى أن

---

(٨) البيان والتبيين ج ٤ ص ٥٧٥ للجاحظ ت فوزى عطوة ط الشركة اللبنانية .

(٩) البيان والتبيين ج ١ ص ١٢٣ للجاحظ ت فوزى عطوة ط الشركة اللبنانية .

(١٠) النقد العربى القديم ص ٩٤ أد. عبد اللاه محمود حسن .

تكون الصورة كذلك خاصة تختلف عند كل واحد منهم عن الآخر فمثلا يقول امرؤ القيس(١١) :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف اعجازا وناء بكلكل

ثم يقول :

كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان الى صم جندل(١٢)

فهذه صورة خاصة لليل بينما نجد النابغة عندما يصوره يقول(١٣) :

كلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت : ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآيب

فالليل عند كل من الشاعرين طويل ، ولكن حكم ونظرة وتصوير كل منهما اختلفت عن الآخر لأن لكل منهما احساسا خاصا ، وشعورا فرديا ذاتيا .

فالليل عند امرىء القيس كموج البحر يرسل الستور السوداء ليختبر ما عند الشاعر من الصبر أو الجزع وهو شاخص كالجمل الذى تمدد بوسطه وأردف أعجازه وتهيأ لينهض ، ولا يريد أن يمضى أو ينقضى .

---

(١١) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ٢٧ الطبعة الأخيرة سنة ١٩٦٦ م .

(١٢) أشعار الشعراء الستة الجاهليين جـ ١ ص ٣٦ للشنتمرى ط دار الآفاق الجديدة بيروت .

(١٣) ديوان النابغة الذبيانى ص٤٠ قطعة رقم٣ ت محمد أبوالفضل دار المعارف .

والدليل أن نجومه ثابتة لا تتحول عن مكانها فهى مربوطة بحبال غليظة الى جبل « يزبل » وثرياه كأنها معلقة فى مكانه بحبال من الكتان فى حجارة صم • فهو يلعن الليل ويسخط عليه ويحس بوقعه ثقيلا ثقيلا وهذا التصوير الفنى لليل والحكم عليه بهذه الصورة الفنية التى جعلته يطول فوق ما فيه من وحشة وثقل وأرق كل ذلك مبعثه الشعور • والشعور يختلف من انسان لانسان آخر فمن باب أولى أن يوجد هذا الاختلاف لدى الشعراء فهذه الأبيات تكون صورة شعرية مشحونة بتجارب الشاعر نفسه ، وتكون الصورة المرسومة بمثابة الاطار العام لمشاعره « فهذه الصورة التى رسمها الشاعر لليل ليست مجرد صورة حرفية أمينة لليل لكنها صورة ليل الشاعر الطويل الملىء بالهموم •

ان ضخامة الهموم التى يعانيها الشاعر هى التى حولت الليل فجعلته كموج البحر الهدار ، ومن خلال صورة الجمل الذى يتمطى بصلبه وأردف أعجازه وناء بكلكله نحس بثقل الهموم على نفسه وكيف أنها انتشرت وامتدت فى كل زاوية من زوايا نفسه فى اطمئنان وهدوء وكأنها وجدت هناك مكانها المريح • هذا النوع من المشاهد التى يشكلها الشاعر ويلونها بمشاعره غير قليل فى الشعر القديم »(١٤) •

وعندما يصور النابغة ليله يحكم عليه من وجهة نفسه وذاته فهو يقول : لقد استطال هذا الليل لما أصابنى من الهموم والآلام حتى حسبت أنه لن ينتهى فكواكبه بطيئة المسير ونجومه كأنها لا تحول وأن الراعى الذى يرعى النجوم ويسوقها الى غاياتها ذهب وتركها من غير رجعة ولهذا فستبقى تلك النجوم • وهناك الكثير من النماذج التى تبرهن على أن الحقيقة الفنية تختلف عن الحقيقة العلمية فالحقيقة فى العلم تكون

---

(١٤) التفسير النفسى للأدب ص ٨٢ د• عز الدين اسماعيل ط ٤ مكتبة غريب •

غير مخالفة للعقـــل ، وفى الوقت نفسه مطـــابقة للواقـــع « وعلى ذلك فالحقيقة العلمية تصح واقعيتها اذا صحت فكرتها الذهنية واذا أثبت المنطق والتجربة المادية الملموسة صحتها • ولذلك فنحن نعلق واقعية هذه القوانين العلمية بمقتضى صحتها المنطقية ومن ثم كانت الحقـــائق العلمية كليات عامة يتفق على صحتها الناس جميعا ومعايير الأحكام على هذه الحقائق لا يتـــرك مجالا للفردية الخاصـــة التى تختلف من فـــرد الى آخر (١٥) •

وهذا يدل على أن العلم والحكم فيه ليس مجال خلاف بين الأفراد لأنه حقيقة ، وحكم يثبت نتيجـــة للتجارب والمشـــاهدة المستخلصة من القوانين الثابتة المبنية على العقـــل والمنطق البعيـــدة عن نفس الفرد ودخائله الوجدانية وعواطفه الفرديةومشاعره الذاتية لأن العلم لايتحدث فيه العالم عن نفسه وانما يتحدث عن الواقع الخارجى ليثبت ما هـــو مبنى على المعطيات والبراهين « أما الأديب فلا يعبأ بذلك كله انما يعبأ بما يشعر به فى نفسه ازاء الواقع فهو يستمد من داخله مازجا الواقع الخارجى بمشاعره وما يضفيه عليه من حالاته النفسية ودقائقها المعنوية• وهذا هو معنى قولهم : ان الأدب ذاتى والعلم موضوعى فالعلم يتناول حقائق الواقع ••• أما الأديب فلا يهمه الواقع ••• انما تهمه نفســـه وحقائقها الوجدانية ودخائلها الشعورية »(١٦) والدليل كمـــا سبق فى وصف الليل فقد اختلف الحكم عليه نتيجة لاختلاف أحوالهم الوجدانية

---

(١٥) راجع قضايا النقد الأدبى ص ١ ، ٢ د• محمد زكى العشماوى ط ٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧ •

(١٦) فى النقـد الأدبى ص ٦٩ د• شـــوقى ضـــيف ط ٤ دار المعـارف بمصر •

وهناك الكثير من النماذج الأدبية التى تسجل هذه الظواهر فالشعراء تختلف نظراتهم الى الطبيعة بصفة عامة ازاء المنظر الواحد فيها من شاعر الى شاعر آخر وذلك بمقدار ما ينعكس فى نفس كل منهم من أفكار ومعانى ومشاعر وأحاسيس اذ أن « الأثر الفنى أيا كان نوعه ليس نتيجة تثبتها التجربة العلمية وانما هو نتيجة ما فى الفنان من تباين وفردية ٠

بل ان قيمة الأثر الفنى لترتفع وتسمو كلما كان هذا التباين،وتلك الفردية مظهرين واضحين فى الانتاج الفنى وهذه الفردية والذاتية التى تميز الفن عن العلم عند النقاد ، وعلماء الجمال ، هى العنصر الأساسى الذى يجعل الفن عند خلقه يتسم بسمة الأصالة : التى هى مجموعة الخصائص الفردية المميزة للأشخاص ان هذه الأصالة هى التى تطبع الأدب بطابع الذات وهى التى تجعل من كل أثر فنى صورة متميزة تحمل روح كاتبها ومزاجه ولفتات ذهنه وقدراته على التعبير ومدى ما يتصف به من صفات فنية مختلفة »(١٧) ٠

فهذه الصفات الفنية المختلفة هى نتيجة لانعكاس الأحداث والتجارب على الشاعر أو هى صدى للانفعال الشخصى الذاتى بحيث اذا مر انسان آخر بهذه التجربة كان لها صدى مختلف عن غيره من الشعراء٠

هذا عن الذاتية أما عن الجماعية فان الشاعر عضو فى المجتمع وفرد من أفراده له علاقاته وروابطه ومكانته ومواقفه فهو عندما ينشد شعر يخاطب به مجتمعه الذى يستوحى خواطره ويستمد الهاماته منه فهو

---

(١٧) قضايا النقد الأدبى ص ٢ د٠ محمد زكى العشماوى ط ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٨م ٠

يتأثر به ويتأثر بمؤثراته • ومن القضايا التى يثيرها النقاد كثيرا قضية الشعر والحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى •

فهل يحسن بالشاعر الجاهلى أن يوجه شعره نحو البيئة والقبيلة والوفاء بقيم مجتمعه والتعبير عنه والتصوير الوافى •

أو أن يوجه شعره نحو الذات النفسية والتعبير عن المشاعر الذاتية• والحقيقة أن الشاعر لا يصح أن يكتب شعره للتعبير عن نفسه فقط ولا أن يصور المجتمع فقط لأنه فى هذه الحالة الأخيرة يكون كالآلة •

فالشاعر الحق هو الذى يصف نفسه ويتحدث عن ذاته من خلال وصفه لمجتمعه والا لما كان الشعر ديوان العرب كما يقولون : « وكثيرا ما يقال ان الأدب هو مرآة المجتمع وهو قول على اطلاقه لا يخلو من المبالغة لأن الأدب قد يصور مزاج الادباء أكثر مما يصور المجتمع وذلك لأن الكاتب أو الشاعر انما يعبر عن تصوره الخاص ومن الاسراف أن يقال انه يعبر عن حياة العصر جميعها »(١٨) •

فالمجتمع السليم هو الذى يتضامن فيه الشاعر مع مجتمعه ويكون له دوره وكيانه ووجوده وواجباته فهو مرآته الصافية النقية التى ينبغى أن تصور آلامه وآماله ومواقفه فى الماضى والحاضر فالشاعر جزء من مجتمعه وله • يذيع أفكاره ومشاعره وكل ما أثر فيه وهزه اذ أن : «الشاعر يشعر بما لايشعر به الآخرون•ولما هو عليه منقوة التخيلوشدة الاحساس بما بين نفسه وبين العالم الخارجى ، يرى ما فى الخارج صورا لما فى نفسه من الداخل ، وما فى نفسه من الداخل أرواحا أو معانى لما فى الخارج »(١٩) ومن كانت هذه غريزته فواضح أن نفسه

---

(١٨) فصول فى الأدب والنقد ص ٢٤٢ د• على أدهم •

(١٩) النقد الأدبى الحديث فى لبنان ج ١ ص ٢٢٧ د• هاشم ياغى

تتأثر أشد التأثر من الدوافع والمؤثرات سواء كانت من قبل نفسه أو من قبل المحسوسات الخارجية ويقول العقاد « أما الشاعر فاسمه بلغتنا يشير الى تعريفه ولعل معجما من معاجم اللغات لا يتضمن اسما للشاعر أدل على مسماه من اسمه فى اللغة العربية ... فليس الشاعر من يزن التفاعيل ... انما الشاعر من يشعر ويشعر » أى يتأثر ويؤثر »(٢٠)•

وعند حديثه عن الشعر العربى يقول : « ولقد ضاع الشعر العربى .... فما كان شعرا بالمعنى الحقيقى الا فى أيام الجاهليين والمخضرمين »(٢١) •

ويقول فى موقف آخر « يقال عن الشاعر البليغ انه هو الشاعر الذى نعرفه من كلامه ... لأنه يصف لنا شعوره بما حوله من الأحياء وسائر الأشياء ومتى عرفنا من كلامه ما يحب وما يكره وما يرضيه وما ينكره وما يحرك طبعه وفكره أو يمر بهما فى غير اكتراث فقد بدت لنا حقيقة جلية سافرة وكان لسان الحال فيه بحق أصدق من لسان المقال »(٢٢) •

فالشاعر جزء من المجتمع يتأثر ويؤثر فيه والشعر هو تعبير عن المجتمع الذى يشكل العمل الفنى ، ويحدد قيمته ، ولكن ليس معنى هذا أن الشاعر يذوب فى المجتمع وتنمحى مشاعره وعواطفه فى التعبير عن مجتمعه وكما يقول بعض الباحثين « ونحن مع ايماننا الكامل بأن المجتمع جزء لا يتجزأ من الوجود الذى هو موضوع الأدب والفن الا أن الأديب هو الذى يرى الوجود من خلال ذاته، ويحاول ادراكه، وتفسيره، والتعبير

---

(٢٠) خلاصة اليومية والشذور ص ١٦٦ للعقاد •
(٢١) المرجع نفسه ص ١٦٧ •
(٢٢) اللغة الشاعرة ص ٧١ للعقاد •

عنه والوجود هنا هو الوجود من كل نواحيه طبيعية كانت أو اجتماعية أو نفسية أو فكرية »(٢٣) فالشاعر الجاهلى ربط بين نفسه وبيئته برباط ذاتى وجدانى ولم ينفصل عن مجتمعه لحظة كما لم يكن آلة تسجل الأحداث وفقط كما يذكر بعض الباحثين عندما يقول : « .. واذا حاولنا النظر الى شعرنا العربى .. أدركنا أن الشاعر العربى لم يتح له يوما أن يتحرر التحرر الذاتى الكامل ، الذى يسمح له بادراك الجوانب الخفية والعميقة فى الحياة »(٢٤) والباحث هنا يرى أن الشاعر عبد المجتمعه يقول الشعر تعبيرا عن مجتمعه وليس عن ذاته وشعوره لأنه لم يتحرر من قيد مجتمعه وقبيلته وهو هنا يفصل بين الشاعر الذى هو جزء من المجتمع وبين المجتمع الذى هو كل له فكيف نطلب من الشاعر أن ينفصل عن المجتمع حتى يتاح له التحرر الذاتى ونحن نرى أن بعض دعاة القيم الذاتية يرددون « أن الأديب ينبغى ألا يعيش فى سطح مجتمعه وأحداثه ... وعليه أن يتغلغل الى الصميم من نفسه ومن الوجود وأسراره وأن يؤدى ذلك فى قيم النفوس والقلب والأرواح ومن ثم يخدم الأديب مجتمعه بما يقدم له من صور الأدب الانسانى ، وما يكشف له من قوانين النفس وقوانين الوجود ، أو قل من أسرار النفس وأسرار الوجود تلك الأسرار التى تنساب فى جوانب الحياة ، وفى رأينا أن الأديب لا يفهم الحياة حق الفهم نافذا الى أعماقها الانسانية الا اذا تاضل مع مجموع أمته الذى ينبثق من مجموع الانسانية الكلى وبذلك يصبح أدبه تصويرا اجتماعيا من ناحية ، وتصويرا انسانيا من ناحية ثانية ، أما اذا استغرق فى نفسه وخيالاته ومشاعره الفردية فانه

---

(٢٣) قضايا النقد الأدبى ص ١٢ د. محمد زكى العشماوى .

(٢٤) حول الأديب والواقع للدكتور عبد المحسن طه .

يصبح منفصلا عن أمتـــه وبالتالى يصبح أكثـــر تعرضا للانفصـــال عن المجموع الانسانى »(٢٥) •

والحقيقة أن الشاعر لا يستطيع الانفصـــال عن مجتمعه وأمتـــه وقبيلته لأنه جزء منها وهى كل متكامل به فهو يســـتمد بواعثه وأفكاره ومبادئه منها ويرتبط بها ارتباطا قويا متصلا والا لعاش الشاعر لنفسه وبنفسه وانفصل عن المجتمع الذى يعيش فيه والذى يستمد منه الحياة ومبادىء القيم ، والأخلاق ، وهذا الانفصال المطلق بالطبع أمر مستحيل يأباه العقل ويرفضه الواقع ، لأن الأديب مهما بدا فى أدبه منفصلا عن مجتمعه فانه يتصل به وبقيمه ففكرة الانعزال الفردى عن المجتمـــع وهم وخيـــال •

فالأديب يصف واقع الجماعة ، ويصف الواقع النفسى،وفى وصفه للقبيلة أو الجماعة ليس معناه عدم التحرر الذاتى والبعد عن الواقع النفسى فالشاعر الجاهلى صور الحيـــاة الاجتماعية كما صور الواقـــع النفسى والمشاعر الذاتية « والى الشاعر يرجع العربى ليتعرف القيم الأخلاقية المفضلة ويستقصى المناقب التى تستحب من الانسان فى حياته الخاصة أو حياته الاجتماعية »(٢٦) فليس حديث الشاعر عن المجتمع والقبيلة ببعيد عن التحرر لدى الشاعر الجاهلى كما يذكر بعض الأدباء ويرجع هذا الحكم كما يقول « وهذا يـــرد الى أسباب خطـــيرة ترتبط بماضيه البعيد وحـــاضره القريب ، وســـنحاول رسم بعض الخطـــوط السريعة لتاريخ هذا الشعر كاشفين عن بعض الأســـباب التى أعطت الشعر العربى هذه الصورة الخاصة • يذكر لنا المؤرخون فيما يذكرون عن المجتمع الجاهلى أن القبيلة كانت اذا نبغ فيها شاعر من الشعراء دقت

---

(٢٥) فى النقد الأدبى ص ١٩١ ، ١٩٢ د• شوقى ضيف •
(٢٦) اللغة الشاعرة ص ٩٨ للعقاد •

طبولها وأرسلت مبشريها وأقامت الأعياد والولائم على شرف شاعرها وأتت القبائل الأخرى لتهنئتها لأن الشاعر لسانها المدافع عن أحسابها والمتحدث عن مفاخرها والرادكيد أعدائها • والخبر عظيم الدلالة وشديد الخطورة فى الوقت نفسه لأنه يدلنا على أن للشاعر وضعا اجتماعيا معينا فى القبيلة ، وهو الدفاع عن مثلها الموجودة وتثبيت هذه المثل والترويج لها تجاه الآخرين ، وخطورة الفكرة تنبع من أن الشاعر الجاهلى بهذه الوضعية كان منفعلا أكثر منه فاعلا وكانت هذه المثل الاجتماعية تقف حائلا بين الفرد ، وبين اكتشاف ذاته ، واكتشاف ذاتية الأحياء من حوله ، وتحدث الشاعر عن الأشخاص الذين يمثلون قيما اجتماعيا قبل أن يتحدث عن الذين يمثلون قيما انسانية »(٢٧) •

صحيح أن القبيلة لم تغب عن وجدان الشاعر الجاهلى وكان دائما لسانها ونبضها وهذا الذى يذكره الباحث دليل واضح على مكانة الشاعر الجاهلى فى القبيلة وما كان يتمتع به من منزلة سامية فى قبيلته ومجتمعه فشىء طبيعى أن يكون لسانها المدافع وهذا يرجع الى أن الشاعر الجاهلى فرد من أفراد هذه القبيلة التى يدافع عنها ويأتمر بأمرها ويخضع لإرادتها وتنمحى الفردية من ذاته عندما يتحدث عن هذه القبيلة فهى الدرع الواقى له والتى يأمن فى ظلالها ويواجه المجتمع بها •

وان كان كل هذا صحيحا فليس معناه أنه دليل قاطع ، وبرهان واضح على أن الآراء الغالبة ، والاعتقادات الشائعة التى تكاد تسلك فى عداد البديهيات فى فكرة أن الشعر الجاهلى مجرد من الذاتية وأنه مجرد أوصاف حسية مقصورة على الوصف الخارجى كما يذكر بعض الباحثين عندما يقول : « ولم تكن الحياة الجاهلية لتساعد أحدا على التحرر من

---

(٢٧) حول الأديب والواقع ص ٤٤ .

سيطرة الجماعة ... واختفت لذلك التجربة الانسانية الكاملة من الشعر العربى ... وانحرف عمل الشاعر العربى عن هدفه وأصبح أشبه بعمل الواعظ أو الخطيب منه بعمل الشاعر الذى يحس الحياة ويعبر عنها ونتيجة لذلك لم تأخذ الأغراض الوجدانية مكانها الحقيقى فى الشعر العربى »

ويستمر الباحث فى تأكيد هذه النتيجة فيقول :

« ونتيجة أخرى لعدم التحرر الوجدانى للشاعر أن اتجه فى أغلب شعره لا الى الاستبطان الذاتى لنفسه وللناس وانما اتجه فى الغالب لوصف مظهرها الخارجى ... وكثر فى الشعر العربى وصف مظاهر الطبيعة الخارجية كأنها أمور قائمة بذاتها غير مرتبطة بالانسان • وشاع الوصف الحسى للمرأة ونظر اليها من خارجها •

فالشاعر العربى الجاهلى اتجه الى المسلمات الخلقية العامة فى بيئته والمظاهر الخارجية للأشياء كنتيجة لعدم تحرره النفسى وبدلا من أن يقدم لنا تجربته الذاتية الخاصة كان يعطينا خلاصة هذه التجربة أو الجانب الذى يخدم مثل القبيلة منها وكان عليه أن يخنق الجوانب الأخرى فى تجربته »(٢٨) •

وفى هذا ظلم للشاعر الجاهلى والشعر الجاهلى عامة وهو التراث الذى يجب الحفاظ عليه لأنه الأساس الذى بنى عليه ماضى النقد الأدبى وحاضره فكل ما ذكر من قواعد فى النقد الأدبى مبنى على قواعد ماضينا منذ العصر الجاهلى •

فالحقيقة أن أغلب الشعر الجاهلى هو تعبير عن الذات — ذات الشاعر أو التجربة الذاتية ، وبصرف النظر عن رأى بعض الأدباء

---

(٢٨) حول الأديب والواقع ص ٤٥ ، ٤٦ د• عبد المحسن طه •

والنقاد الذين عمدوا الى التقليل والغض من قيمة الشعر الجاهلى ويدين الشاعر الجاهلى والماضى بصورة مطلقة ، ويحكم عليه حكمه الذى يقول : ولم تكن الحياة الجاهلية بطبيعتها لتساعد أحدا على التحرر من سيطرة الجماعة .... وانحراف عمل الشاعر العربى عن هدفه... فالشاعر العربى الجاهلى اتجه الى المسلمات ... وبدلا من أن يقدم لنا تجربته الذاتية الخاصة كان يعطينا خلاصة هذه التجربة أو الجانب الذى يخدم مثل القبيلة منها »(٢٩) .

واذا كان الباحث قد فرض أفكاره ومنطقه على الشاعر الجاهلى فانه أيضا فرض نفسه فى هذا الحكم ولعل فى ذلك أصدق مثال على أن الباحث لم يفرق بين شاعر وآخر اعتمادا على حكمه الذاتى ولذلك لجأ الى الحكم المباشر على الشعر والشاعر الجاهلى على أن ذلك لم يمنع من ظهور أدباء ونقاد مفكرين ومعتدلين قد استطاعوا أن يثبتوا ذاتية الشعراء الجاهليين من خلال قصائدهم وأشعارهم وأن يقدروا حاجة الشاعر النفسية ويكشفوا عن نفسية هؤلاء الشعراء والحكم على هذه الفكرة — عدم الذاتية — فى الشعر الجاهلى نسوق هنا ما قاله بعض الأدباء « ولعل أروع ما فى القصيدة الجاهلية وأصدقه هو الوقوف على الأطلال ... وكان ذلك الوقوف ذا صبغة عاطفية ذاتية يعبر فيها الشاعر عن عاطفته النبيلة فى وفائه لحبه ... وفى ذلك تجلت أصالة الشاعر العربى القديم وصدقه »(٣٠) .

وفى الرد على هذه الفكرة — فكرة البعد عن الذاتية فى الشعر الجاهلى — نذكر ما قاله أستاذنا الدكتور / عبد السلام : « لم يهدف

---

(٢٩) راجع : حول الأديب والواقع ص ٤٥ ، ٤٦ .
(٣٠) فى النقد التطبيقى والمقارن ص ٣٣ د. محمد غنيمى هلال .

الشاعر العربى الى رسم صورة محددة المعالم واضحة القسمات للحياة التى عاشها أو الأحياء الذين شاركهم الحياة وما كان له أن يهدف الى ذلك ولا أن يفعله. وانما استهدف الشاعر الجاهلى — من منطلق وعيه بفنه — تصوير مشاعره تجاه مواقفه الحيوية التى عاشها ... صور شعوره حين فارقته أو التفت به حبيبته من خلال ما رسم من مواقفها معه ومعاملتها له ... وفى كل شعره كان يجسد مشاعره فى الصورة التى يرسمها للأشياء ولذلك بدت تلك الصورة حية نابضة كما صب فيها الشاعر من حسه ونفسه »(٣١) .

وهناك الكثير من الأدباء ، والنقاد الذين لا نشك فى سداد آرائهم ورجحان تفكيرهم وصحة أحكامهم يثبتون الذاتية فى الشعر الجاهلى ، ويعتبرون الحكم المطلق عليه بأنه شعر الجماعة وليس شعرا شخصيا وانه يعبر عن عاطفة جماعية وليس عن عاطفة ذاتية للشاعر فهذا يعد من الخطأ اذ يقول : « اننى لا أقع فى الخطأ الذى يقع فيه كثير من الباحثين حين يتحدثون عن فناء شخصية الجاهلى فى الشخصية القبلية فيزعمون أن الشاعر الجاهلى لم يصور عاطفته هو بل عاطفة القبيلة ويقولون انه مجرد آلة تعبر عن آمال القبيلة ورغباتها ... فكل هذا كلام شديد الخطأ . فالشاعر الجاهلى ليس لسانا مأجورا للقبيلة وما اهتم بتصوير عاطفتها بل هو يصور ما يجده فى نفسه ، وهو شأن كل شاعر حق فهو ان رضى ، أو سخط ، أو أثنى أو هجا أو تلطف أو توعد فليس يفعل ذلك لأن قبيلته تريد منه أن يفعله بل لانه يحس فى نفسه هو بكل هذه الانفعالات احساسا صادقا فهو يعبر عنها تعبيرا صادقا وان افتخر بصفات معينة أو ذم صفات أخرى فليس يفعل ذلك

---

(٣١) الأدب العربى فى الجاهلية ص ٢٩ أ.د. عبدالسلام عبد الحفيظ

لأن مجتمعه القبلى يرغمه على هذا بل لأنه هو عنده هذه العقيدة وهذه النظرة يؤمن بها مخلصا فهى تدفعه الى تصوير قيمه الأخلاقية » (٣٢) .

ونحن فى قولنا لا نتعصب للشاعر الجاهلى من حيث هو جاهلى غايتنا أن نقف موقف المنصف ، فلا نقلل من شعرهم ونسمه بأنه وصف حسى فقط ، وأنه شعر الجماعة والقبيلة ، وليس فيه ذاتية لكونه تصويرا لظروف حياتهم ومعارفهم فليس كل الشعر الجاهلى على هذه الصورة وانما كان هناك الكثير من الشعر الذاتى والفردى أما بالنسبة للحديث عن القبيلة فهذا أمر طبيعى وهذا يرجع الى ارتباط الشاعر بالقبيلة لكونه له التمتع بحمايتها والاستنجاد بها فعليه أن يدافع عنها لأنها تدافع عنه وتثأر له اذا قتل واذا اعتدى عليه وثأر لنفسه فعلى قبيلته أن تأخذ بيده وتشد أزره واذا ارتكب جناية خارج القبيلة كان على كل فرد من أفرادها أن يساهم فى مساعدته ويتحمل معه فى جنايته كما لو كان هو الجانى ومن هنا نرى أن القبيلة هى ملجأ الشاعر وملاذه بصفة خاصة كما أنها ملجأ كل فرد من أفرادها ودرعه الواقية ومركز الأمان بالنسبة له ومن أجل هذا كان تعصب الشاعر الجاهلى لقبيلته عظيما واعتزازه بها لا حد له فأمجادها ومآثرها ومفاخرها أغنيته المحببة اليه فهو يرددها فى زهو واعجاب ويضع نفسه فى خدمة حقوقها ورهن اشارتها « فقل يضحى للقبيلة بنفسه وما له ، فهى حياته وكيانه وهو مع اعتزازه بفرديته وحريته يعيش لها داخل اطارها مدفوعا فى ذلك بعصبية شديدة وحينئذ يكون حديثه عن القبيلة هو نفس حديثه عن نفسه وذاته لأن رفعة نفسه وعزتها من رفعة القبيلة وعزتها ولهذا نجد العصبية مسيطرة عليهم وعلى نفوسهم فالجاهلى يتسامح فى كل شىء الا فى قبيلته يصور ذلك قول دريد ابن الصمة :

---

(٣٢) ثقافة الناقد الأدبى ص ٢٦٥ د. محمد النويهى ط ٢ بيروت سنة ١٩٦٩ .

وما أنا الا من غزية ان غـــوت غويت وان ترشد غزية أرشد

فغيه ورشده مرتبطان بعشيرته ان ضلت ضـــل معها وان اهتدت اهتدى معها » (٣٣) •

وكان لهذه العصبية أثر كبير فى الشعر الجاهلى ، وربما اشـــتهر الشاعر منهم بأن شاعر قبيلته ، اذن فالسبب الذى رآه بعض الباحثين دافعا الى عدم الذاتية والتعبير عن النفس البشرية ليس مقبـــولا لأنه اعتماد على ما ليس حقيقة ، وانما هى أحكام لن يرضى بها أغلب النقاد ان لم يكن الجميع ، لأنهم اعتمدوا على شىء ظنوه قاعدة تفسر لهم ما يشاءونه ، وهو عدم ذاتية الشاعر الجاهلى لأنه مسلوب الحرية ، وذاتية تتمحى فى ظل الجماعة ، والقبيلة وبالتالى فشـــعره ليس فيه تجـــارب ذاتية أو واقعية نفسية لأنه ليس فيه شعور صـــاحبه ، وغفلوا فيمـــا غفلوا عن أن الشاعر الجاهلى كما يذكر بعض الباحثين : « وفى رأينا أن الشعر الجاهلى كله لا القصيدة المفـــردة يتوزعه تلك الاتجاهـــان الكبيران : اتجاه الوجدان الفردى واتجـــاه الوجدان الجمـــاعى ومن الطبيعى أن تتداعى وتتهافت كل النتائج التى رتبها دعاة القول بشيوع الروح القبلى فى الشعر الجاهلى واذا ظفرنا بقصيدة واحدة أفردهـــا الشاعر بالحديث عن نفسه دون قبيلته ونضرب مثلا معلقة امرىء القيس فانه لم يتعرض الا لوصف الأطلال ، ومحبوبته ، ومغامراته ، وفرسه وخروجه للصيد ووصف سيل من السيول الجارفة ، ومنها قصائد المرقش الأصغر فى المفضليات ذوات الأرقام ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ فانه أفـــردها بل أفرد كل ما وصل الينا من شعره للحديث عن حبه لفاطمة بنت المنـــذر وجاريتها هند بنت عجلان وقصته المشهورة معهما ، وفى هـــذا الضرب

---

(٣٣) انظـــر : تاريخ الأدب العـــربى فى العصر الجـــاهلى ص ٦١ د• شوقى ضيف •

قصائد المرقش الأكبر فى المفضليات ذوات الأرقام ٤٦،٤٧،٤٩والقصيدة رقم ٨ للحادرة والقصيدتان ١٨،١٩ لعبد الله بن مسلمة ... ويمكن أن نظفر بكثير من مثل هذه القصائد الذاتية اذا نحن استقصينا دواوين الشعراء الاخرين »(٣٤) .

وهذا يعنى أن الشعر الجاهلى ليس مجرد وثيقة تسجيلية تصحح بعض المفاهيم عن تاريخ العصر الجاهلى أو تكشف عن طبيعة العرب فى هذا العصر فقط . فالشعر الجاهلى خاصة والشعر العربى عامة قبل كل شىء شعر غنائى يعبر فيه الشاعر عن اذته ، وما يعتلج فيها من خطرات نفسية صادقة ، وعن كل ما يشعر به من أحاسيس ونوازع تجاه الناس والبشر من حوله .

صحيح أن الشاعر الجاهلى كان مرتبطا بقبيلته ارتباطا وثيقا ولكن ذلك فى الحدود التى تلتزم بها القبيلة فى حربها ، وسلامها أما عندما يبتعد عن هذه الرابطة القبلية لا ينسى عواطفه ومشاعره ونوازعه بكل ما فيها من حب وبغض وخير وشر .

وهذا الجانب الذاتى فى الشعر الجاهلى نعنى به المواقف الفردية التى يختلف فيها كل شاعر عن سواه فاذا عبر « طرفة بن العبد » عن حياته التى تتسم بالانحلال الخلقى والانغماس فى المتع الحسية واعجابه بخصال ثلاث حرص عليها فى حياته وهى الخمر ، والشجاعة، والتمتع بالنساء فيقول(٣٥) :

---

(٣٤) مقدمة القصيدة العربية فى الشعر الجاهلى ص ٢٣٢ د. حسين عطوان .

(٣٥) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص ٦٩ ، ٧٠ .

نداماى بيض كالنجـــوم وقينـــة
تروح علينـــا بين برد ومجسـد
رحيب قطـــاب الجيب منها رفيقة
بجس النـــدامى بضـــة المتجرد
اذا نحن قلنـــا أسمعينا انبرت لنا
على رســـلها مطروقة لم تشـــدد
إذا رجعت فى صوتها خلت صـــوتها
تجـــاوب أظـــآر على ربع ردى
ومازال تشرابى الخمـــور ولذتى
وبيعى وانفـــاقى طريفى ومتلدى
الى أن تحامتنى العشـــيرة كلهـــا
وأفردت افراد البعـــير المعبد

فهو يقول نداماى أحرار كرام تتلألأ ألوانهم ، وتشرق وجوههم ومعهم مغنية تأتى وتذهب بملابسها الجميلة التى تزيد حســنها وهى تلبس الملابس الواسعة كى تمتع كل من يريد أن يلمسها عن طريق هذا الجيب الواسع ، أما ما عرى من جســدها فهو ناعــم الملمس صافى اللون .. الخ الى أن يبين لنا فى البيتين الأخيرين كيف كان هذا الافراط فى المتع الحسية غير مرضى عنه من أعضاء العشيرة الذين يتمســكون بالعرف ، والقيم ، والتقاليد ، وهو يصر على أن يحرص على التمتــع بالخصال الثلاث فى حياته ، وهى الخمر والشــجاعة والتمتع بالنســاء فيقول(٣٦) :

ولولا ثلاث هن من عيشـــة الفتى
وجدك لم أحفـــل متى قام عـــودى

---

(٣٦) شرح المعلقات السبع ص ٦٩ .

فمنهن سبق العاذلات بشربة
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرى اذا نادى المضاف مجنبا
كسيد الغضا نبهته المتورد
كريم يروى نفسه فى حياته
ستعلم ان متنا غدا أينا الصدى

وفى البيت الأخير يلخص طرفة هذه الفلسفة الشهوانية عندما يقول أنا كريم يروى نفسه أيام حياته بالخمر لأنه يريد أن يموت ريان بالخمر وهذا الأمر شيء ، لا تقره الجماعة ، ولا ترضى عنه وبالتالى فهو شعر ذاتى فردى ، وهو ينغمس فى اللهو والمجون حتى لو أدى الأمر الى المقاطعة كما حدث « لطرفة » أو الطرد كما حدث لامرىء القيس عندما أصر على قول الشعر بطريقته التى يرضى عنها يقول ابن قتيبة : « وكان امرؤ القيس طرده أبوه لما صنع فى الشعر بفاطمة ما صنع ، وكان لها عاشقا فطلبها زمانا فلم يصل اليها ، وكان يطلب منها غرة حتى كان يوم الغدير بدارة جلجل ما كان فقال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

فلما بلغ ذلك حجرا أباه دعا مولى له يقال له ربيعة فقال له : اقتل امرأ القيس وآتنى بعينه(٣٧) • فشذوذ امرىء القيس هو الذى دفع والده الى أن يأمر بقتله ، ومقياس الشذوذ هنا هو الخروج على القواعد السلوكية العامة • ولعل فى بقية النص السابق ما يعيننا على هذا الاستنتاج حيث يقول فى هذه البقية : « فكان يسير فى أحياء

---

(٣٧) الشعر والشعراء جـ ١ ص ١١٣ لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر ط ٣ سنة ١٩٧٧م •

العرب ومعه أخلاط من شذوذ العرب من طى وكلب وبكر بن وائل فاذا صادف غديرا ، أو روضة ، أو موضع صيد أقام فذبح لمن معه فى كل يوم ، وخرج الى الصيد فتصيدوا ثم عاد فأكل وأكلوا معه ، وشربوا الخمر وسقاهم ، وغنته القيان ، ويؤيد ذلك قصته المشهورة عندما تلقى نبأ قتله أبيه فلم يتوقف عن اللهو بل استمر فى الشرب وقال : لا صحو اليوم ولا سكر غدا اليوم خمر وغدا أمر » ثم قال :

خليلى ما فى اليـــوم مصحى لشارب
ولا فى غد اذ كان ما كان مشرب(٣٨)

وهناك الكثير من الأشعار التى تصور تلك الحياة المنحلة المنغمة فى الذاتية ، والفردية ، وبالذات فى أغلب المعلقات فعلى سـبيل المثال نجد عنترة فى معلقته يقول(٣٩) :

ولقد شربت من المدامة بعـدما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صـفراء ذات أسرة قرنت بأزهر فى الشمال مفدم
فـاذا شربت فاننى مسـتهلك ما لى وعرضى وافر لم يكـلم

والأعشى يقول(٤٠) :

فقد أخـالس رب البيت غفلته وقد يحاذر منى ثم ما يئـل
وقد أقود الصبى يوما فيتبعنى وقد يصاحبنى ذو الشرة الغزل

وقول لبيد(٤١) :

بل أنت لا تدرين كم من ليلـة طلق لذيذ لهوها وندامهـا

---

(٣٨) الشعر والشعراء ج ١ ص ١١٤ .
(٣٩) شرح المعلقات السبع ص ١٧٤ .
(٤٠) ديوان الأعشى ص ١٤٨ .
(٤١) شرح المعلقات السبع ص ١٢٩ .

وقد بت سامرها وغاية تاجـر وافيت اذ رفعت وعـز مدامها

ومعلقة امرىء القيس التى يقول فيها(٤٢) :

وبيضـــة خدر لا يرام خبـاؤها
تمتعـت من لهـوبها غير معجـل
تجاوزت أحراســا اليها ومعشرا
على حراصـــا لو يسرون مقتـلى
اذا ما الثريا فى الســـماء تعرضت
تعرض أثنـاء الوشـاح المفصـل
فجئت وقـد نضت لنـــوم ثيابها
لدى الستر الا لبسـة المتفضـل

وهناك الكثير من ما حكى فى كتاب الأغانى(٤٣) عن هذه الحياة . وبينما نجد بعض الشعراء يسرفون فى الخمر والنساء والشراب نجد على النقيض منهم من يستشعر مجال الحياة فى الايمان فنجد أمية ابن أبى الصلت يقول :

يا رب لا تجعلـنى كـــافرا أبـدا
واجعل سريرة قلبى الدهر ايمـانا
واخلط به بنيتى واخلـط به بشرى
واللحم والدم ما عمـــرت انسانا

وقال أمية أيضا :

رب لا تحرمنى جنة الخلد وكن رب بى رءوفا حفيا

---

(٤٢) شرح المعلقات السبع ص ١٥ ـ ١٧ .
(٤٣) الأغانى جـ ٩ ص ٣٢٠٧ ـ ٣٢٠٤٥ .

والحفى : اللطيف ، وهو قوله تعالى(٤٤) : « انه كان بى حفيا » أى لطيفا وقال أمية بن أبى الصلت :

ملك على عرش السماء مهيمن تعنو لعزته الوجوه وتسجد(٤٥)

ومن الصور التى ترسم موقف الشاعر النفسى وتدل على الفردية الذاتية قول « ذى الاصبع » العدوانى وهو يفخر بمساعدته للصديق وعفة لسانه وترفعه عما فى أيدى الناس ورفضه للهوان والذلة فيقول(٤٦) :

انى لعمرك ما بابى بذى غلق
عن الصديق ولا خيرى بممنون
ولا لسانى على الأدنى بمنطلق
بالفاحشات ولا فتكى بأمون
عف يؤوس اذا ما خفت من بلد
هونا فلست بوقاف على الهون

ويصف المرقش الأصغر شدة شوقه الى محبوبته بعد أن زاره طيفها وظنه شخصها فعندما فاق من نومه فلم يجد غير رحله ورأى المكان خاليا من صاحبته التى رأى طيفها فى كل مكان حتى أثر فى قلبه جرحا وفى عينه دمعا فقال(٤٧) :

---

(٤٤) سورة مريم آية ٤٧ .

(٤٥) انظر جمهرة أشعار العرب ص ٢٤ ، ٢٥ للقرشى تحقيق على محمد البجاوى دار النهضة مصر .

(٤٦) المفضليات للضبى جـ ١ ص ١٦٠ ت وشرح أحمد محمدشاكر وعبد السلام هارون دار المعارف .

(٤٧) المفضليات جـ ١ ص ٢٤٢ .

أمن بنت عجـــلان الخيال المطرح
ألم ورحـــلى ســـاقط متـــزحزح
فلما انتبهـــت بالخيـــال وراعنى
اذا هو رحلى والبـــلاد توضـــح
ولكنـــه زور يبقـــظ نائمـــا
ويحدث أشـــجانا بقلبك تجـــرح
بكل مبيت يعتـــرينا ومنـــزل
فلو أنهـــا اذ تدلج الليل تصـــبح

وتكثر فى أشعار الجاهليين مراثيهم التى تقطـــر بالفجيعة عـــلى ذويهم وأحبائهم ، وقد اشتهرت شواعر العرب بهذا اللون الذاتى المعبر عن الاحساس بالفجيعة ، « كالخنساء » فى رثائها أخويها « معـــاوية » « وصخر » وذلك مثل قولها فى أخيها « معاوية » بعدما لقى مصرعه فى يوم حرة الأول(٤٨) :

ألا لا أرى فى الناس مثل معاوية اذا طرقت احدى الليالى بداهية
فأقسمت لا ينفك دمعى وعولتى عليك بحزن ما دعا الله داعيـــه

وكذلك تقول فى صخر(٤٩) :

أعينى جـــودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر النـــدى
ألا تبكيان الجرىء الجميل ألا تبكيان الفتى الســـيدا

ويتميز شعر الصعاليك بهذا الجـــانب الذاتى الذى يعبر تعبـــيرا مباشرا عن النفس الانسانية ، فى كل حـــالاتها دون تزييف للمشـــاعر أو الاستعانة بالخيال ، وقد كانت ظـــروف انعـــزالهم عن المجتمـــع

---

(٤٨) الديوان ص ٤٥ دار صادر بيروت ١٩٦٠م .
(٤٩) الديوان ص ٣٠ .

واضطرارهم للدفاع عن أنفسهم بعد أن فقدوا حماية القبيلة واعتمدوا على السلب والنهب فى كسب عيشهم بعد أن تجردوا من الثروة والمال فأصبح شعرهم يتميز باللون الذاتى فالشعراء الصعاليك « هكذا حين نتتبع موضوعات شعرهم،وأغراضه فنجد كل هذه الموضوعات والأغراض مشدودة الى أشخاصهم ومرتبطة بها • فهم مثلا حينما يتحدثون عن الفقر أو الجوع لا يتحدثون عنه من الزاوية العامة أو من وجهة الحكمة والفلسفة فيتحدثون مثلا عن الفقر أو الجوع لذاته ، وأثره فى الناس، وما ينتج عنه من شر أو أثر أو يدعون الى محاربته ، وعلاجه أو غير ذلك من الزوايا التى يتناول منها الشعراء ما يعرضون له من أمور وانما يتناولونه من ناحيتهم ومن ناحية أثره فيهم واحساسهم به ووسيلتهم لعلاجه ومقاومته »(٥٠) •

ويصف تأبط شرا حاله ومدى ما وصل به الأمر من الفقر والفاقة حتى كأنه لم يملك النعل الذى يقيه من الصخور فيقول(٥١) :

لا شىء فى ريدها الا نعامتها
منها هزيم ومنها قائم بأق
بشرثه خلق يوق البنان بها
شددت فيها سريحا بعد اطراق

ويقول عروة بن الورد عن فقره الذى دفعه الى مجابهة المخاطر وجعله يصمم على الغزو فى سبيل الحياة والبعد عن السؤال ومذلته يقول لزوجته ان مجابهته للمخاطر أهون عليه من ذل السؤال وانتظار

---

(٥٠) شعر الصعاليك ص ٣٧٧ د• عبد الحليم حفنى الهيئة المصرية العامة للكتاب •

(٥١) المفضليات ج ٢ ص ٣٠ •

الحسنات فان رجع غنم وأغناها وان قتل فمـوته أرحم لها من ذلهـا فيقول(٥٢) :

ذرينى أطـــوف فى البلاد لعلنى
أخليك أو أغنيك عن ســوء محضر
فان فاز ســـهم للمنيـــة لم كن
جزوعا وهل عن ذاك من متـــأخر
وان فاز ســـهمى كفكم عن مقـاعد
لكم خلف ادبار البيـــوت ومنظر

وتتعدد التجارب الذاتية الى حد كبير عند الصعاليك وغيرهم من الشعراء الجاهليين ... ونلاحظ فى هـذا الجانب الذاتى من الشـعر الجاهلى الصدق الانسانى فى التعبير وبعده عن تهاويل الخيال وتصويره لجوانب مختلفة من النفس البشرية فى حالاتها المتباينة »(٥٣) .

ومن الصور التى ترسم موقف الشاعر نفسه ، وتدل على الذاتية نحو مباشر ما نجده عند كثير من الشعراء الذين يشكون مر الشكوى من القبيلة ومن ظلمها فيقول طرفة(٥٤) :

وظلم ذوى القربى أشـــد مضاضة
على المرء من وقـــع الحسام المهند
فلو شاء ربى كنت قيس بن خـالد
ولو شاء ربى كنت عمـرو بن مرثد

---

(٥٢) الأصـمعيات جـ ٢ ص ٤٤ ت وشرح أحمد محمـد شـاكر وعبد السلام هارون دار المعارف .
(٥٣) الشعر العربى من الجاهلية حتى نهاية القرن الأول الهجرى ص٤٥ للدكتور محمد مصطفى مدارة دار المعارف الطبعةالأولى .
(٥٤) المعلقات السبع ص ٧٧ .

فأصبحت ذا مال كثير وازرنى
بنون كرام سادة لمسود

أما عن الجماعة فعندما نقرر الجماعية فى الشعر الجاهلى انما نضع فى اعتبارنا جملة من العوامل تتصل بالبيئة العربية فى العصر الجاهلى من حيث طبيعتها الجغرافية ، ومن حيث حياتها الاجتماعية والاقتصادية وما كان يسود هذه الحياة من تقاليد ، وما ينتشر فيها من قيم فان دراسة الحياة العربية فى العصر الجاهلى فى شتى نواحيها المختلفة فكرية واجتماعية وسياسية وجغرافية هى المنهج الوحيد الذى يكشف عن الأسباب التى جعلت القصيدة العربية تتخذ هذا اللون الجماعى ، وتتجه هذا الاتجاه الذى فرض على الشاعر فى بعض الأحيان .

وهذه الخصائص المناخية والاقليمية هى التى وجهت الشاعر الجاهلى وحددت ملامح شعره وما يسوده من قيم وهى التى فرضت عليه ألوانا معينة من الشعر يتحدث فيها عن الجماعة والقبيلة « ان الجفاف والجدب ووعورة الحياة هى التى حددت القيم الأخلاقية عند العرب فشعور العرب بالضعف أمام قوة الطبيعة وقسوتها هو الذى فرض عليهم القوة تقديس والبسالة وهو الذى جعلهما مبدأ من مبادىء السيادة عند العربى وهو كذلك ولد الشعور بالحاجة الى واجب مقدس هو الضيافة والنجدة ، والمروءة ، فهذه الأرض الصحراوية الممتدة الواسعة عندما تتضيق بجفافها ، ووعورتها ، وجدبها بأحد من هؤلاء البدو فانه لا يعدم أن يجد العون والجوار وحسن الضيافة عند الجميع ، وكان هذا الخلق شيئا عاما ولدته الطبيعة ... وفى مثل هذا المجتمع يصبح من العسير على الفرد أن يعيش مستقلا اذ كيف يمكن للفرد أن يعيش لنفسه وبنفسه »(٥٥) .

---

(٥٥) قضايا النقد الأدبى ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

ومن هنا وجب الانتماء الى الجماعة ، والقبيلة لأن الفردية لا تستطيع الحياة ولا تقوى على البقاء وبالتالى نشأ نظام القبيلة ووجدت العصبية القبلية ، وأصبح لزاما على الشاعر أن يتحدث عن القبيلة والجماعة مع الحديث عن نفسه وشعوره والشاعر الجاهلى فرد فى قبيلته ومن المفروض عليه أن يأتمر بأمرها ويخضع لمشيئتها ويتحمل كل ما يلقى عليه من مسئوليات وبالتالى يذوب وجدانه فيها وفى هذه الحالة تذوب الفردية من ذاته ولا يبقى فى نفسه الا سلطان القبيلة يبهره ويسيره ويوجهه ويقول فى ذلك معاوية بن مالك(٥٦) :

انى امرؤ من عصبة مشهورة
حشد لهم مجد أشم تليد
ألفوا أباهم سيدا وأعانهم
كرم وأعمام لهم وجدود
اذ كل حى نابت بأرومة
نبت العضاة فماجد وكسيد
نعطى العشيرة حقها وحقيقها
فيها ونغفر ذنبها ونسود
واذا تحملنا العشيرة ثقلها
قمنا بها واذا تعود نعود
واذا نوافق جرة أو نجدة
كنا سمى بها العدو نكيد
بل لا نقول اذا تبوأ جيرة
ان المحلة شعبها مكدود

---

(٥٦) المفضليات ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

فالشاعر يتحدث عن قومه الذين وصلوا الى الذروة من عشيرتهم ويحملون عنهم المحملات ويتحملون عنهم الديات ويدفعون عنهم العدو ولا ينتحلون الأعذار لمن يطلب منهم عونا ولا يعتذرون لأضيافهم بما ينوبهم من شدة وضيق كذلك نجد اللون الجماعى عند الشاعر « عامر المحاربى » الذى أخذ يفخر بقومه ويصور مهابتهم وقوتهم على أعدائهم فى الحرب وفضائلهم فى السلم كحماية الجار وغيره فيقول(٥٧) :

فأبقت لنا آباؤنا من تراثهم
دعائم مجد كان فى الناس معلما
ونرسى الى جرثومة أدركت لنا
حديثا وعاديا من المجد خضرما
بنى من بنى منهم بناء فمكنوا
مكانا لنا منه رفيعا وسلما
أولئك قومى ان يلذ بيوتهم
أخو حدث يوما فلن يتهضما
وكم فيهم من سيد ذى مهابة
يهاب اذا ما رائد الحرب أضرما
لنا العزة القعساء نختطم العدا
بها ثم نستعصى بها أن نخطما
وكنا نجوما كلما انقض كوكب
بدار زاهر منهن ليس بأقتما

فالشاعر فخر بأيام قومه وخص يوم رجيح حين لقوا طيئا ونكلوا بهم ثم تحدث عن اعتزازه بكرم أصله وشرف قومه وكثرة سادتهم

---

(٥٧) المفضليات ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

فالشاعر الجاهلى يقف جنبا الى جنب مع الفارس فى الدفاع عن القبيلة، وفى المعارك مع الأعداء ، وقد سجل شعراؤهم أغلب هذه المعارك ان لم يكن جميعها فالشاعر الجاهلى يفخر بقومه ويتغنى بمجد قبيلته ، وبمن فيها من كثرة الرجال المحاربين الذين يضحون بأرواحهم فى سبيل مجد القبيلة ، وعزها ، وحماية عرضها وأرضها ومن هذا المنطلق نجد « عمرو بن كلثوم » يفخر بقومه ويعدد المناقب والسجايا التى يتميزون بها على أعدائهم فيقول(٥٨) :

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا
وأيام لنا ولهم طوال ... عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيد معشر قد توجوه ... بتاج الملك يحمى المحجرينا

ويقول(٥٩) :

ورثنا المجد قد علمت معد ... نطاعن دونه حتى يدينا
ونحن اذا عماد الحى خرت ... على الأخفاض نمنع من يلينا(٦٠)
ندافع عنهم الأعداء قدما ... ونحمل عنهم ما حملونا
نطاعن ما تراخى الناس عنا ... ونضرب بالسيوف إذ اغشينا

---

(٥٨) معلقة عمرو بن كلثوم بشرح أبى الحسن بن كيسان ص ٥٨ ، ٥٩ ت د. محمد ابراهيم البنا دار الاعتصام الطبعة الأولى وجمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والاسلام ص ٢٨٠ ، ٢٨١ للقرشى ت على محمد البجاوى دار النهضة .

(٥٩) معلقة عمرو بن كلثوم ص ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ وجمهرة أشعار العرب ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٦٠) الأخفاض متاع البيت واحدها خفض والأخفاض فى هذه الرواية الابل التى تحمل المتاع .

فالشاعر يفخر بقومه ، ويصور بأسهم على عدوهم ، وسفكهم دمائهم بلا رحمة ولا شفقة حتى تتحول الرايات البيض الى رايات حمر لارتوائها من دماء الأعداء ، وأن لهم أياما غرا تعلي من شأنهم وتقلل من شأن عدوهم الذى فرقوا جمعه وشتتوا شمله وأضعفوا شوكته كذلك يتحدث الشاعر عن قبيلته وما ورثته من الأفعال العظيمة ، وتعبيره بقوله « ورثنا المجد » يؤكد أن هذا المجد كان من قبل على يد الآباء والأجداد أى أنه متأصل فيهم ، والشاعر فى هذه القصيدة يكثر من تكرار الكلمات التى تدل على البطولة والشجاعة من مثل «بأنا نورد الرايات بيضا » و « نصدرهن حمرا قد روينا » « ورثنا المجد » « نطاعن » « نمنع » «ندافع» «نحمل» «نضرب» وكلها تتفق مع القيمة الشعورية عند الشاعر « وتكرار الكلمات ظاهرة بينة فى تلك القصيدة ذات الجرس الظاهر من خلالها بوقدة الانفعال وعمق التأثير والاستجابة النفسية لعصبية القبيلة التى درج عليها هؤلاء الشعراء الجاهليون وصاغوا حياتهم على مقتضاها » .

فالاباء والصرامة والقوة وحب الذات من سجاياهم التى نشأت معهم وأصبحت من خصائص وجودهم التى لا محيد عنها . فاذا تحدث الشاعر الجاهلى عن تلك الخصائص فكأنه يستجيب فى حرارة ، وصدق لداخله ، ولنوازع التى تتردد فى أحشائه ، ومن ثم يجىء تعبيره أخاذا يجذب قارئيه وسامعيه ويقع من وجدانهم ، وعواطفهم موقعا مؤثرا »(٦١) .

فالشعر لغة النفس واذا ما خرج من القلب وصل إلى القلب والشاعر فى هذه الأبيات يتحدث بصدق عما يشعر به من حب للقبيلة ،

---

(٦١) فى مرآن الشعر الجاهلى ص ٣٥٧ د. فتحى أحمد عامر .

واعزاز للجماعة وتقديسها حتى أصبحت هذه القصيدة أنشودة يرتلها جميع أفراد القبيلة فعندما يتحدث الشاعر عن الجماعة لم يخل شعره من الشعور النفسى والانفعال الصادق نجد هذا واضحا من خلال كلمات الشاعر عمرو بن كلثوم وهو يتحدث بلسان الجماعة عندما يقول(٦٢) :

ونوجد نحن أمنعهم ذمارا
وأوفاهم اذا عقدوا يمينا
ونحن غداة أوقد خزاز
رفدنا فوق رفد الرافدينا
ونحن الحابسون بذى أراطى
تسف الجلة الخور الدرينا
ونحن الحاكمون اذا أطعنا
ونحن العازمون اذا عصينا
ونحن التاركون لما سخطنا
ونحن الآخذون لما رضينا

فنحن نجد الشاعر عميق الانفعال فى حديثه عن قبيلته ويدل على هذا الانفعال قوله « نحن » التى أخذ يكررها فى كل بيت وبعد أن بلغ الانفعال قمته عند الشاعر نجده كرر « نحن » مرتين فى كل بيت وهذا يدل على أن الشاعر ملتهب الشعور صادق الانفعال وهو يفخر بقومه وجماعته فالصدق العاطفى هو الذى جعله يكثر من تكرار هذه الكلمة التى جاءت عفو الخاطر ويكثر أيضا من المقابلات التى جاءت فى النص عندما يقول(٦٣) :

---

(٦٢) معلقة عمرو بن كلثوم ص ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨.
(٦٣) جمهرة أشعار العرب ص ٢٩٥ للقرشى .

وأنـــا المنعمـــون اذا قـــدرنا
وأنـــا المهلـــكون اذا أتينـــا
وأنا الحـــاكمون بمـــا أردنا
وأنا النـــازلون بحيث شـــينا
وأنا الطـــالبون اذا انتقمنـــا
وأنا الضـــاربون اذا ابتلينـــا
وأنا التـــازلون بـــكل ثغـــر
يخـــاف النـــازلون به المنـــونا
ونشرب ان وردنا المـــاء صـــفوا
ويشرب غـــيرنا كـــدرا وطنيـــا

ويستمر الشاعر فى نصه الذى أخذ يتغنى بأمجاد قبيلتـه الذى اختار له بحر الوافر مع قافية النون المفتوحة التى استهوت الشـاعر وساعدته على النغمة الموسيقية التى عاونته على أن يعبر عما فى نفسه من مشاعر وأحاسيس وهو يفخر بقبيلته وأمجادها وسلطانها .

وكذلك من الشعر الجماعى الذى يعبر الشاعر فيه عن ذاته وقبيلته قول(٦٤) الحصين بن الحمام المرى فى يوم دارة « موضع » :

جزى الله أفناء العشـيرة كلهـــا
بدارة موضـــع عقوقا ومأثمـــا
صـبرنا وكان الصـبر فينا سجية
بأســـيافنا يقطعن كفـــا ومعصما
فلقن هـاما من رجـال أعـزة
علينـــا هم كانوا أعـق وأظلمـا

---

(٦٤) المفضليات جـ ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

نطـاردهم نسـتنقذ الجرد كالقنا
ويستنقذون السـمهرى المقوما
عشـية لا تغنى الرماح مكـانها
ولا النبل الا المشرفى المصـمما

فهو يصف صـبرهم فى القتال ، وشدة بأسهم على عـدوهم وقد استحر القتل فيهم ، وأخذ قوم الشاعر يضربون أعداءهم بالسـيوف ويغنمون منهم خيلهم ، ويتركون الرماح فى أجسادهم بعد أن حققـوا النصر عليهم .

وكما كان الشاعر الجاهلى معبرا عن قبيلته ونسانها فى حالةالحرب كذلك كان نبضها القومى فى سلامها أيضا ، وذلك عندما أدرك العـرب بشاعة الحرب ونتائجها المدمرة التى خاضوا غمراتها وكثيرا ما سـمعنا من الشعراء من ينادى بالسلام ويكثر من الدعوة اليه وعلى رأس هؤلاء الشعراء الذين نادوا بالسلام وجندوا أنفسهم للدعوة اليه « زهير بن أبى سلمى » فى معلقته العظيمة التى قالها بعد الصـلح بين « عبس » و « ذبيان » فى حرب « داحس والغبراء » والتى مطلعها(٦٥) :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

وفيها مدح الشاعر الساعين فى الصلح(٦٦) :

يمينا لنعـم السـيد ان وجـدتما
على كل حال من سـحيل ومبرم
تداركتما عبسـا وذبيان بعـدما
تفانوا ودقـوا بينهم عطر منشم

---

(٦٥) شرح المعلقات السبع ص ٨٥ للزوزنى .
(٦٦) المصدر السابق ص ٩١ ، ٩٢ .

وقد قلتما ان ندرك السلم واسعا
بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن
بعيدين فيها من عقوق ومأثم

ويمثل حبه للسلام والدعوة اليه قوله فى الحرب ونتائجها فينصح قومه بقوله(٦٧) :

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثونها ذميمة
وتضرى اذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها
وتلقح كشافا ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم
كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

فيعرض لنا زهير فى هذه القصيدة قيم الحياة الفضلى كما يتمثلها شيخ واسع التجربة الذاتية خبير بحوادث الأيام فى العصر الجاهلى وهو مثال للسيد العظيم عندما يحسم الحرب ويسعى فى السلم وقد جمع الصفات المثلى كلها فى أبيات متوالية يشيد فيها بحسن السياسة والفضل والوفاء والقيام بمطالب العشيرة كما يشيد فيها بالاقدام والمحافظة على قيم الحياة ، وليس أغنى من الشعر الجاهلى بهذه المذاهب الأخلاقية معروضة فى صدر الشخصيات الحية يتسع فيها المجال لتطور كل شخصية على حسب اختلاف السن والمزاج وتجارب الأيام

---

(٦٧) شرح المعلقات السبع ص ٩٥ ، ٩٦ للزوزنى .

وهذه القصيدة أوفى قصائد الشعر الجاهلى فى وصف قيم الحياة كما يتمثلها شاعر جاوز الثمانين ، وقضى العمر فى عراك العيش بين الحرب والسلم والشدة والرخاء وقام بتكاليف الحياة حتى سئم تكاليفها(٦٨):

سئمت تكـــاليف الحياة ومن يعش
ثمـــانين حـــولا لا أبالك يسـأم
وأعلم ما فى اليـــوم والأمس قبله
ولكننى عن عـــلم ما فى غد عم(٦٩)

ومن الشعراء الذين نادوا بالســـلام أيضـــا وحذروا من الحرب ونتائجها الأعشى الذى يقول(٧٠) :

بنى عمنـــا لا تبعثـــوا الحرب بيننا
كرد رجيع الرفض وارموا الى السلم
وكونوا كمـــا كنا نكون وحافظوا
علينا كما كنا نحافظ عن رهـــم(٧١)
نســـاء مواليا البواكى وأنتـــم
مددتم بأيدينـــا حـــلاف بنى غنم
فلا تكســـروا أرماحهم فى صدوركم
فتغشكم ان الرمـــاح من الغشـــم

فهو يدعو الى السلـــم ويحذر من الحرب لمـــا ينجم عنها من دمار وكذلك كما تحدث الشاعر الجاهلى عن قبيلته فى الحرب والسلم نجده

---

(٦٨) راجع : اللغة الشاعرة ص ١٠٨ للعقاد مكتبة غريب .
(٦٩) شرح المعلقات السبع ص ١٠٢ للزوزنى .
(٧٠) ديوان الأعشى ص ١٨٦ .
(٧١) رهم حى عربى عرف جدا فى البداوة .

يقف موقف الناصح الداعى الى الخصال الحميدة المعدد للشمائل الجميلة التى تجعل القبيلة فاضلة فى مجتمعها من مثل العفة وحفظ العهد والسخاء بالمال ، وحفظ الأعراض الى جانب الشجاعة والاقدام والوفاء وحفظ الذمار يقول « الحادرة »(٧٢) :

انا نعف فلا نريب حليفنا
ونكف شح نفوسنا فى المطمع
ونقى بآمن ما لنا أحسابنا
ونجره فى الهيجاء الرماح وندعى
ونخوض غمرة كل يوم كريهة
ترذى النفوس وغنمها للأشجع
ونقيم فى دار الحفاظ بيوتنا
زمنا ويظعن غيرنا للأمرع
ومحل مجد لا ينسرح أهله
يوم الاقامة والحلول المرتع

وحتى لو اختلف الشاعر مع قبيلته فى الرأى فانه يظل وفيا لها ملتزما بطاعتها يصور ذلك قول الأعشى(٧٣) :

فان أنأ عنكم لا أصالح عدوكم
ولا أعطه الا جدالا ومحربا
وان أدن منكم لا أكن ذا تميمة
يرى بينكم منها الأجالد مثقبا
سينبح كلبى جهده من ورائكم
وأغنى عيالى عنكم ان أؤنبا

---

(٧٢) المفضليات جـ ١ ص ٤٥ .
(٧٣) ديوان الأعشى ص ١٢ .

وأدفـــع عن أعراضكم وأعـيركم
لســانا كمقــراض الخفاجى ملحبا

فهو حتى لو اختلف معهم لم يصــالح عدوهم بل يظل معــاديا له واقفا ضده ولم يقصد لقــبيلته بأى ايذاء فلا ينهش أعراضهم ولا يظهر سيئاتهم بل يظل شعره فى خدمتهم •

وهناك كثير من الشعراء من جمع بين الذاتية والتعبير عن النفس وبين القبيلة والاعتزاز بها فها هو « لبيــد بن ربيعة » يبدأ معلقتــه بالوقوف على الأطلال ووصف ما تبقى من الديار فيقول(٧٤) :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

وقد تحدث الشاعر فى هذه المقدمة عن نفســه وأحاسيسه التى يكتم فيهــا الألم والحزن عندما ذهب الى المكان الذى كا نمملوءا بالحب والحياة مع وجود الحبيبة ونجد احساس اللوعة الذى لازمه عندما علم بالرحيل فأخذ يسألها مصورا لذعة الحنين وألم الفراق الذى أحس به عندما ارتحل الأحباب فيقول(٧٥) :

فوقفت أســألها وكيف ســـؤالنا
صم خـــوالد ما يبين كلامهـــا
عريت وكان بها الجميــع فابكــروا
منهــا وغودر نؤيها وثمــامها(٧٦)

---

(٧٤) شرح المعلقات السبع ص ١٠٦ للزوزنى •

(٧٥) شرح المعلقات السبع ص ١١١ للزوزنى •

(٧٦) النؤى : نهير يحفر حول البيت لينصب اليه المــاء والجمع نؤى وأناء وتقلب فيقال آناء مثل أبؤر وآبار والثمام ضرب من الشجر رخو يسد به خلل البيوت •

فالشاعر يتحدث عن نفسه عندما تذكر لحظة الوداع التى لا يملك الانسان لها دفعا وتصوير لحظة الوداع لاشك أنها مرتبطة ارتباطا كاملا بالشاعر ونفسه وذاته • والشاعر يصير وسط أمواج من العواطف والمشاعر الصادقة عندما يقول لبيد (٧٧) :

شاقتك ظعن الحى حين تحملوا فتكنسوا قطنا تصر خيامها(٧٨)

ثم بعد ذلك ينتقل الشاعر الى وصف الناقة ثم الى الفخر بقومه والحديث عنهم لأنهم كما يقول بعض الباحثين « واذا كان هذا شأنه أيام اللهو ، والسلم حيث يجد الشاعر الوقت الذى يخلو فيه لنفسه ولصحبه فان له أياما أخرى يكرس فيها وقته وجهده للدفاع عن القبيلة وحمايتها ••• فاذا كنا قد عرفنا الكرم مظهرا من مظاهر البطولة فكذلك كان الدفاع عن القبيلة فضيلة من أعلى فضائل هذا الشعب وشرفا يسمو الى تحقيقه • ومن أجل هذا يحس لبيد بالفخر والزهو حين يعرض علينا موقفه وقد دعاه الواجب للدفاع عن قومه ••• واذا كان الشاعر قد ترك الحديث عن نفسه الى الحديث عن فرسه فهو مايزال يفخر بنفسه فارسا مغوارا وما صورة الفرس المتوثبة نشاطا الا جزء من صورة الفارس نفسه يقول الشاعر :

ولقد حميت الحى تحمل شكتى فروط وشاحى اذ غدوت لجامها
فعلوت مرتقيا على ذى هبوة حرج الى أعلامهن قتامها

والشاعر فى هذا الجزء يصور موقفه البطولى والبطل الحقيقى عندهم هو ما تتمثل فيه صفات المروءة والبسالة والفداء ونكران الذات

---

(٧٧) شرح المعلقات السبع ص ١١٢ للزوزنى •
(٧٨) الظعن هو البعير الذى عليه هودج وتكنسوا : أى جعلوا الهودج كنسا كما تكنس الظباء فى الأرض •

ولكن تحقيق هذه المعـانى كلهـا لا يتم على الوجه السليم وفى المجتمع القبلى الذى لم يكن يستطيع الفرد فيه أن يعيش مستقلا بذاته ولذاته فالفرد فى المجتمع القبلى خلية حية فى بناء عضوى متكامل ولا يمكن لهذه الخلية اذا انفصلت عن كيانها أن تعيش كمـا لا يمكن للكيان القبلى أن يحتفظ بحياته وقوته وتماسكه اذا انفصلت خلاياها الحية عنه ومن هنا ندرك أن الشاعر الجاهلى عندما يفخر بنفسه انما يفخر بقبيلته وعندما يفخر بقومه وجماعته فانما يفخر بنفسه وبذاته ولهذا يقول لبيد(٧٩) :

انا اذا التقت المجـامع لم يزل
منا لذاذ عظيمـة جثـامها
ومقسم يعطى العشيرة حقها
ومغذمر لحقوقها هضـــامها
فضـــلا وذكرم يعن على الندى
سمح كسوب رغائب غنامها
من معشر سـنت لهـم آباؤهم
ولكل قوم ســـنة وامامهـا
لا يطبعون ولا يبور فعـالهم
اذ لا يميل مع الهوى أحلامها

فالشاعر يفخر بقومه وقبيلته القوية التى تجشـم عظائم الأمور وتقمع الخصوم وتحسن تقسيم الحقوق وتحافظ على التقاليد الموروثة من الآباء والأجداد واذا رجعنا الى المعلقة جميعها أمكننا أن نصـل الى صدق الشاعر عندما يتحدث عن نفسه وذاته كما نجد عنده نفس الشاعر الصادقة عندما يتحدث عن الجماعة والقبيلة « فقد كان لطرفة فى معلقته

---

(٧٩) شرح المعلقات السبع ص ١٢٦ ، ١٢٧ للزوزنى .

موقف موحد من الوجود استطعنا أن نستشفه من فلسفته كما أن فيها محاولة رائعة فى تحقيق التوازن بين مشاعر الفرد ومشاعر الجماعة»(٨٠)

وهناك الكثير من الشعراء الذين استطاعوا أن يحققوا هذا التوازن بين التعبير والذات والتعبير عن الجماعة فهذا « طرفة » عندما يتحدث عن ذاته ونفسه لم ينس أبدا احساسه بالجماعة وواجباتهـا عليه فهو الذى يقول(٨١) :

ألا أيهـذا الـلائمى احضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فان كنت لا تسـتطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بمـا ملكت يدى
وما زال تشرابى الخمـور ولذتى
وبيعى وانفاقى طريفى ومتلدى
الى أن تحامتنى العشـيرة كلهـا
وأفردت افراد البعـير المعبد

وهو نفسه الذى يقول(٨٢) :

اذا القـوم قالوا من فتى خلت أننى
عنيت فلم أكسـل ولم أتبـلد
ولست بحلال التـلاع مخـافة
ولكن متى يسـترفد القوم أرفد
فان تبغنى فى حلقـة القوم تلقنى
وان تقتنصنى فى الحوانيت تصطد

---

(٨٠) قضايا النقد الأدبى ص ١٩٣ د٠ محمد زكى العشماوى ٠
(٨١) شرح المعلقات السبع ص ٦٩ ، ٧٠ للزوزنى ٠
(٨٢) السابق ص ٦٦ ، ٦٧ ٠

وان يلتقى الحى الجميـع تلاقنى
الى ذروة البيت الرفيع المصـمد

والبيت الأول من هذه المقطوعة يصور احساس الشـاعر بالجماعة الذى جعله يشعر بأنه لابد أن يجيب نداء قومه حتى ولو لم تكن الدعوة موجهة اليه لأنه اعتبر أى دعوة لم توجه الى فرد بعينه فانما تعتبر فى نظره دعوة موجهة الى كل أفراد القبيلة ومن هنا فهى نموذج للانسان الشاعر فى العصر الجاهلى الذى يجمع بين الشـعور بالذات والشـعور بالجماعة فهو يحاول أن يلائم بين حاجة نفسه ، وحاجة قومه ويعبر عن نفسه ويعبر عن القبيلة وهناك الكثير من هذه النماذج يمكن التعرف عليها من خلال الدواوين والأشعار الجاهلية .

وبعد فاننى لا أحسبنا مسرفين على أنفسنا اذا رأينا فى النصوص السابقة ما يوحى لنا بالطمأنينة الى أن الشـاعر الجاهلى عبر عن ذاته ومشاعره ، وعواطفه وأن أغلب الشعر الجاهلى ذاتى ، فانشاعرالجاهلى تميز بالذاتية التى خصته بطابع خاص فى شـخصه وأسلوبه وحياته . فالشاعر الجاهلى ينفرد بطابع يخصه ومن هنا يستحق الشاعر الجاهلى ميزة الذاتية وذلك من خلال هذا الذى قدمناه فى الصفحات السـابقة وانه ليجلو لنا فى وضوح ناصع جانبا وضيئا مزهرا من حياة الشـاعر العربى الجاهلى فأصبح لكل شاعر ذاته ، وعاطفته ومشاعره التى تميزه عن غيره وان « التميز لذاته فضيلة أدبية فمن الواضح أن أوضح مراتب الجودة فى الأدب بل وفى الانتاج البشرى كله هو التميز لأنه لا يصبح الأديب أديبا حقا الا اذا كان له طابعه المميز الذى يبعده عن التقليد ، وعن الذوبان فى فصيلته التى ينتمى اليها » (٨٣) .

---

(٨٣) شعر الصعاليك ص ٣٧٦ د. عبد الحليم حفنى .

فالشاعر الجاهلى له ذاته ، وطابعه الذى يميزه عن أبنـاء عصره وجيله ، ومجتمعه ، وقبيلته فذاتية الشاعر كانت طابعا مختصا به لم يكن للقبيلة ولا للمجتمع دخل فيها وانما من حياته الشخصية وأحاسيسه .

فالذاتية نعنى بها أن يجعل الشاعر نفسه فى شـعره دائمـا صلب الحديث وكل ما يصفه أو يتحدث عنه يكون مشدودا الى ذاته وشخصيته بخيوط واضحة وهذا أهم ما يميز هـذا اللون الذاتى . فالذاتية تجعل الشاعر لا يقف من الأشياء موقف المشاهد أو المتفرج انما يكون دائما داخل الصورة معبرا عن أحاسيسه ومشاعره هو .

وهكذا نجد الشـاعر الجاهلى عنـدما يتحـدث عن أى غرض من الأغراض الشعرية وان كنا لا نملك حق اصدار الأحكام القاطعة فى هذا المجال ولكننا نملك الملاحظة والاعتبار بالشـواهد التى بلغتنا من أخبار الجاهليين وأشعارهم صـحيح أن بعض الشـعراء الجاهليين صـوروا المحسوسات ووقفوا عند الشكل الخارجى لمظـاهر البيئة والطبيعة الا أنهم لم يتجردوا من الشعور النفسى الذاتى بل كان الشعر الذاتى أكثر ايغالا فى صميم الشاعر من مجرد الوقوف عند الصـورة السـطحية أو التعبير عن القبيلة والجماعة وقد ذكر فيما سبق أن كثيرا من الشعراء نزعوا الى التعبير عن الذات ولم يعد الشـاعر الجـاهلى مجرد وثيقة تسجل أحوال الجماعة والقبيلة بمقدار عنايته بالتصوير الذاتى النفسى وان تحدث عن القبيلة فهى من خلال ذاته المـاثلة فى نفسه وشـعوره وعلاقتها بمشاعره وعواطفه « والشاعرعضو فى المجتمع وفرد من أفراده له علاقاته وروابطه ومكانته وموقفه .

هو يخاطب بفنه المجتمع ويعبر عن خفى مشـاعره باعتباره أحد

أفراد هذا المجتمع »(٨٤) « والمجتمع السليم هو الذى تتضامن وحداته فى حياته فيكون لكل وحدة دورها فى كيانه ووجوده وتكاليفه وواجباته ولا يوجد الأدباء فى الأمة عبثا فهم لها هداة الطريق وهم مرآتها الصافية النقية التى ينبغى أن تصور آلامها وآمالها ومواقفها وكل ما حلمت به فى الماضى وتحلم به فى الحاضر وأن الأديب من أمته ولها يذيع أفكارها ومشاعرها وكل ما هزها وأثر فيها من أحداث ظاهرة أو باطنة مستترة »(٨٥) فهل بعد هذا يصح القول بأن الشاعر الجاهلى كان لسان القبيلة المأجور ولم يعبر عن ذاته ومشاعره ؟

فالحق اذا أن الشاعر الجاهلى عبر عن نفسه وعن قبيلته من خلال ذاته ، وان بدا تعبيره عن مجتمعه فذلك لأنه ابن لبيئته التى لا يستطيع الانفصال عنها .

د. أحمد عبد المنعم أحمد العسيلى
مدرس الأدب والنقد فى كلية اللغة العربية
بأسيوط

---

(٨٤) فصول فى الأدب والنقد والتاريخ ص ٢٤١ لعلى أدهم الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٨٥) فى النقد الأدبى ص ١٩١ د. شوقى ضيف .